مركزية المكان في روايات عادل عصمت

إعداد

شيماء إبراهيم توفيق السيد

ماجستير فى الأدب والنقد بقسم اللغة العربية ، كلية الآداب ـ جامعة طنطا

أ.د / أسامة محمد البحيري

أستاذ النقد الأدبي والبلاغة بقسم اللغة العربية ، كلية الآدب ــ جامعة طنطا

د/ بشير عصام الشوربجي

مدرس الأدب والنقد بقسم اللغة العربية ، كلية الآداب ــ جامعة طنطا

المستخلص :

تبلور موضوع الدراسة حول توضيح محورية المكان في روايات عادل عصمت ، حيث شكل عنصر المكان فى روايات الكاتب جانبًا هامًا فى بنية أعماله الروائية ، فلم يقتصر على كونه وعاء للحدث فقط ، بل تعدى ذلك ليشارك فى بنية الرواية . فتحول المكان إلى بطل فى الرواية . وكشفت دراسة المكان عن ارتباط روايات عادل عصمت ببيئتها بصورة قوية ، واعتمدت الدراسة علي آليات المنهج الفني بما يقتضيه من تحليل وموازنة ، شملت القيم الفنية والجمالية كما لم تغفل المضمون وما يندرج خلفه من أهداف وغايات.

وانقسمت الدراسة إلى جزئين :

الجزء الأول: وصف الأمكنة ودلالاتها ودور الوصف فى تقديم صورة حية للمكان ، الجزء الثانى : ارتباط الشخصيات بالمكان وأثره البارز فى تطوير الشخصيات وتشكيل الصراع داخل الروايات وتوضيح ذلك من خلال الاستشهاد بنصوص متنوعة

وجاءت أهم نتائج الدراسة : تبين ارتباط عادل عصمت بالبيئة الطنطاوية التي طغت على كتاباته .

الكلمات الإفتتاحية :

الفضاء المكانى ، وصف الأمكنة ، تأثر الشخصيات بالمكان ، مدينة طنطا ، تأثير الشخصيات فى المكان .

للعنصر المكانى أهميته فى بنية العمل السردي عامة وبنية العمل الروائي بصفة خاصة، فهو من أكثر العناصر ارتباطًا بالرواية وعالمها الداخلى ، فهو مسرح الأحداث التى تتم فيها الرواية وتتحرك فيها الشخصيات ،إذ أنها لا يمكن أن تتحرك فى الفراغ ،ومنه أيضًا تكتسب الشخصيات عاداتها وطباعها.

فالمكان إذن هو ذلك الفضاء الذي يحوى جميع عناصر السرد الأخرى المكونة للعمل الروائي من شخصيات ومكان وزمان وأحداث ، وغيرهم من العناصر ، كما أنه هو من يمنح الشخصيات المناخ الملائم الذى تتفاعل فيه ، وهو من يعبر على مرور الزمن ، فالمكان يحمل معاني وأشكال عديدة تساهم فى إبراز العمل الفنى . كما أن للمكان علاقته الخاصة بالشخصيات الروائية، فهو شديد الصلة بها؛ حيث إنه هو الفضاء الذي له عاداته وتقاليده وجغرافيته ، التى تلون الأحداث ، وتسير فيها الشخصيات ، فتتفاعل معه ، فيؤثر فيها وتتأثر به فتظهر الشخصية حاملة لسمات المكان ومعبرة عنه.

فالفضاء المكانى هو البيئة التى تحوي الشخصيات ب" دلالتها الرحيبة التى تتسع لتشمل البيئة بأرضها وناسها وأحداثها وهمومها وتطلعاتها وتقاليدها ، وقيمتها ، فالمكان بهذا المفهوم كل زاخر بالحياة ، والحركة يؤثر ويتأثر ويتفاعل مع حركة الشخصيات التى تتحرك على أرضه ، ومستوى المواقف التى تحدث فى إطاره ، واتجاه الصراع الذي يدور فى داخله "[١]

فأهمية المكان تكمن فى دوره فى اكتمال المعنى داخل العمل الروائي ، فحين يختار الروائي مكان لأحداث رواياته فإنه يختاره بعناية فائقة مدركًا مدى تأثير هذا المكان علي الشخصيات ، وطريقة تفكيرهم ، فالشخصيات التى تنتمى إلى المدينة بطرقها الواسعة وصخبها وعاداتها وطباعها ، تختلف بالضرورة فى سلوكها وعاداتها وطباعها وطريقة حياتها عن الشخصيات التى تنتمى إلى الريف ، فلكل منهم عاداته التى تربطه بالمكان الذي نشأ فيه وتأثر به.

فالعلاقة بين الإنسان والمكان إذن " علاقة جدلية بين المكان والحرية ، وتصبح الحرية في هذا المضمار هى مجموع الأفعال التى يستطيع الإنسان أن يقوم بها "[٢]

وقد فطن الكاتب عادل عصمت إلى أهمية المكان و أثره على الشخصيات، فظهرت شخصياته متأثرة بالبيئة المكانية التى نشأت فيها معبرة عنها فى سلوكها وعاداتها وطبائعها واهتماماتها وطريقة حياتها.

كما لم يغفل أهمية وصف المكان والعناية بتفاصيله الدقيقة ، مبينًا أثر تلك التفاصيل فى الكشف عن أبعاد الشخصيات وطبائعهم وعاداتهم.

وقد اتخذ عادل عصمت البيئة المصرية وخاصة مدينة طنطا مسرحًا لأحداث رواياته جميعًا ، فكانت المكان الذي نشأ فيه أبطاله ، واكتسبت عاداتها وطبائعها ، فاعتنى ببيئته عناية فائقة مبرزًا بعضًا من عادات أهلها وحياتهم وتقاليدهم وأسماء شوارعها ومبانيها وأشجارها التى امتلأت بها ، وكل ما يميزها ويضفي عليها طابع الخصوصية

١ـ عبد الفتاح عثمان : بناء الرواية ، دراسة فى الرواية المصرية ،مكتبة الشباب ـ مصر، ط١٩٨٢، ص ٥٩

٢ـ سيزا قاسم : القارئ والنص والعلامة ، المجلس الأعلى للثقافة ـ القاهرة ، د.ط ، ٢٠٠٢ ، ص ٤٥

فكانت مدينة طنطا فضاءً سرديًا لروايات عادل عصمت ، ويرجع ذلك إلى عاملين أساسيين هما:

أولًا :ـ ضرورة رجوع الكاتب فى رواياته إلى مكان على دراية واسعة به ، وبكل تفاصيله الدقيقة؛ وذلك لأن الكاتب غالبًا ما يأخذ من تجاربه فى المكان؛ ليرسم شخصياته.

ثانيًا :ـ أهمية مدينة طنطا ، التى تتميز بـــ

ـ موقعها الجغرافى فى قلب الدلتا.

ـ وجود الجامع الأحمدى بها ، الذي كان له حضوره القوى وأثره البارز على معظم شخصيات الكاتب وهذا ما سأحاول الوقوف عليه خلال الصفحات التالية والتى تم تخصيصها لعلاقة الشخصيات بالفضاء المكانى . وذلك من خلال النقاط التالية :ـ

أولًا : وصف الأمكنة ودلالاتها

ثانيًا : ارتباط الشخصيات بالمكان

أولًا وصف الأمكنة ودلالاتها :

للوصف أهمية كبيرة فى النصوص الروائية ، فالوصف هو الاداة الأقدر على تقديم المكان وبنائه ، فهو وسيلة الكاتب لتصوير المكان وبيان جزئياته وأبعاده [١] فهو الذي يدخل بالقارئ إلى قلب المكان بتفاصيله الدقيقة وأشيائه ، كما يتميز الوصف ـ بما أنه صورة لغوية ـ بقدرته على تصوير العناصر سواء كانت مرئية أو غير مرئية ، فتغدو صورة المكان فى العمل الروائي والمقدمة عبر آلية الوصف صورة نابضة بالحياة مفعمة بالحركة والحيوية ، مجسدة له بتضاريسه وأشكاله وأصواته ورائحته ....، لذلك كان الوصف أهم أداة من أدوات تشكيل المكان ، لأنه هو من يمنح المكان صورته ورائحته وصوته[٢] ويلجأ الكاتب إلى آلية الوصف خلال تشكيل المكان لما له من أهمية بالغة فى تقديم صورة حية للمكان وتعريف الشخصيات الروائية التى تعيش داخل المكان ، فالأماكن الموصوفة كالمدن، والقرى، والأحياء ، والمنازل ، وما تحويه من أثاث وأدوات ، تسعى إلى أن تقوم بدور تفسيرى داخل الرواية ، هذا الدور يساعد على فهم الشخصيات ، ومعرفة مستواها الاجتماعى والمادى ، والثقافى، وطباعها ،وذوقها [٣] وقد سعى عادل عصمت للإفادة من آلية وصف المكان للكشف عن شخصياته ،وهذا مابرز فى رواياته ، والتى نذكر منها :

رواية " هاجس موت " الذي كان المكان فيها عنصرًا فاعلًا فى الكشف عن شخصيات الرواية فنجد الكاتب يأخذنا منذ الصفحة الأولى إلى مكان الأحداث؛ ليصف لنا البيت مكان الأحداث ، الذي مات فيه

١ـ انظر ؛ مصطفى الضبع : استراتيجية المكان ، الهيئة العامة لقصور الثقافة ، ط١ ، ١٩٩٨ ، ص١٦٦

٢ ـ انظر ؛ سيزا قاسم : بناء الرواية ، دراسة مقارنة فى ثلاثية نجيب محفوظ ـ دار التنوير ، بيروت ،ط ١ ، ١٩٨٥، ص ١٠٧

٣ ـ انظر ؛ حسن بحراوي : بنية الشكل الروائي ،المركز الثقافي العربى ، الدار البيضاء ، ط١ ، ١٩٩٠ ص ٣٠ ،٤١

الرجل بكل تفاصيله الدقيقة وملامحه وأثره على الشخصيات وطبائعهم وتصرفاتهم. " الروح التى علقت على السلالم ، الدرابزين ، وأبواب الشقق ، وشرعات النوافذ ، والمناور ، ودخلت تلك الاماكن التى يسكنها ناس طيبون . فمن الصعب على أم حامد وهى تغسل السلم يوم الجمعة أن تمحو هذا الأثر الذي يبدو أنه سكن التفاصيل اللامرئية للمبنى .الشمس تترك شرفة المطبخ وتزحف في مربع مكسور أمام الحمام يختمر لون البلاط اللامع المغسول في رائحة البيت الطيب الذي أخرج رجالًا طيبين من تحت هذا الضوء المسائي والنظام الدائم كالأيام : نظام تبديل الملاءات يوم الجمعة ، نظام مواقيت الصلاة على سجاجيد من قطيفة ورنين صوت الأب بقواعد اللغة العربية فى أركان البيت ، استمرت هذه الانظمة كسياج حتى مات الشيخ وترك الشك مكان جسده قائمصا فى كل ركن من اركان البيت كانتظار فربما يكون موته أحد خدعنا . وربما يطرق الباب ويدخل يخلع سترته الكحلية بوقار وهيبة شجرة كافور فى الليل ، ويسأل عن الأولاد " [1] فحملت المقدمة تحديدًا دقيقًا للبيئة المكانية كاشفًا عن الشخصيات التى تسكنها ، فوصف لنا الراوي ـ أحد شخصيات الرواية ـ البيت الذي عاش فيه وتمت فيه أحداث الرواية ، وصفًا دقيقًا حيًا ، أبرز من خلاله مدى ارتباطه بالبيت بيئتها التى حيت فيها ، واعتادت عليها حتى أصبحت جزءًا منها ومن تصرفاتها وحركتها وأفعالها تضفى عليها من روحها ، فالسلالم والشراعات والأبواب والدرابزين كل هذا يوحى بمدى تأثر بسيمة بالبيت ، وأثره على تصرفاتها وعاداتها اليومية. وساعدنا الوصف السابق على معرفة البعد النفسى والاجتماعي للشخصية ومع هذا نجده لم يكتف بالوصف الخارجى للبيت ، بل قام بوضعنا داخل أحداث المكان؛ ليصور لنا حياة الأسرة وتصرفاتها وأفعالها قبل تأثر المكان بالحادث الذي وقع فيه وبعده ، فكانت حركة الشمس على بلاط المطبخ المكسور تعيد الذكريات إلى أيام طيبة ، عاشها المكان مع شخصياته ، فأخرجت منهم ناس طيبين ، كالشيخ الذي كان صوته بقواعد اللغة يملأ أركان البيت. كما لم يغفل الكاتب عن رسم حركة الشخصيات داخل المكان وعاداتهم المرتبطة به كنظام تبديل الملاءات يوم الجمعة ، والمحافظة على مواقيت الصلاة و غسل السلالم يوم الجمعة، فبرزت كل هذه التفاصيل جزءًا من عادات البيت وسلوك أهله وأفكارهم ، فعكست رائحة البيت الذى اختلطت برائحة الرجل الميت على سلوك شخصياته التى كانت دائمة الخوف من ذلك المكان الذي أصبح ينبئ بتأثيره الشيطانى عليهم. ويواصل الراوى تصوير المكان بكل تفاصيله الدقيقة وأثره على شخصياته وعاداتهم وتصرفاتهم تصويرًا حيًا ، فحدثنا عن شوارع المدينة القديمة وأحيائها و موقعها وطريقة تنظيمها وأماكنها التى فرضت على زوارها بعض تصرفاتهم وعاداتهم بداخلها دون أن يذكر اسمها ، فكان وصف الراوى واهتمامه بالمدينة وصفًا طبيعًا دقيقًا ، مبرزًا فيه أثرها على الشخصيات وتفاعلهم وتحركاتهم دون إقحامه فى السرد فبدا طبيعيًا.

وفى رواية " الوصايا" ومن خلال تقديم الجد وصاياه لحفيده عبر سيرته الذاتية ، تعرفنا على المكان الذي نشأ وعاش فيه شخصيات الرواية فى فترة الخمسينيات بكل ما تحمله من عادات وتقاليد ومبانى ومعتقدات مرتبطه بالمكان. فكان الجد شديد الحرص على تصوير القرية بكل تفاصيلها الدقيقة؛ ليبين مكان الأرض والمكان ككل ومدى أهميتهم فى حياتهم وأثر سلبهم على الشخصيات جميعًا؛ حيث تبدأ الرواية بمرض الجد وسؤاله عن حفيده ـ الولد الساقط ـ الذي أهمل وضاع بعد أن تعشم فيه؛ ليخصه بحكايته وحكاية الأرض لعله يعود إلى طريق العائلة ، ويبدأ الجد وصيته الأولى بوصف بيته فى مدينة

١ـ عادل عصمت : رواية هاجس موت ،دار شرقيات للنشر والتوزيع ، باب اللوق ـ القاهرة ، ط١ ، ص ٩ ، ١٠

طنطا وصفًا تفصيليًا حيًّا من الخارج والداخل ، متخذًا منه نموذجًا لبيوت المدينة فى تلك الفترة بنظامه وترتيبه ، وأفكار ومعتقدات شخصياته ومخاوفهم المرتبطة بالأماكن فى ذلك الوقت ، ومدى أثره على شخصياتهم وقرراتهم ، فالبيت فى " حارة ضيقة ، تقود إليها درجات سلم حجرى . رائحة رطوبة فى الجو . يخطو نور الدين بتمهل . يبسمل ويشق طريقه على ضوء فانوس معلق أمام باب خشبى . محلات مغلقة الأبواب ، بأعمدة مائلة من الحديد . كلب رفع رأسه ونبح بكسل ، ثم عاد ليرقد من جديد أمام باب مفتوح يشع منه نور أصفر باهت . البيت من طابقين . بوابته مفتوحة ، والشرفة فيها غسيل منشور يهتز مع نسمات الليل الباردة . السكون صلب، يدفع بآيات منسية من القرآن إلى لسان نور الدين ... دخل البيت ، يواصل ترديد آيات القرآن . على يساره زير قديم مستقر على قوائم من الحديد ، وفوقه غطاء من الخشب . رائحة الرطوبة نفاذة ، وصوت تنفس يأتى من اعماق الغرف المدخل مضاء بلمبه زجاج موضوعة على بسطة السلم .. باب الغرفة بضلفتين ...."[١] فكان وصف نور الدين للبيت وصفًا دقيقًا متنافيًا مع حس الرهبة والخوف الذي كان مسيطر عليه . مبرزًا مدى حرص الكاتب على تصوير الفضاء المكانى بكافة تفاصيله التي تؤكد بساطة المكان وبساطة ساكنيه، واعتزاز نور الدين بالبيت الذي عاش فيه طوال دراسته مع الشيخ قبل أن يقرر ترك الدراسة والعودة إلى البلد للعمل فى الأرض والزواج. كما لم يغفل الراوى الحديث عن المدينة وشوارعها رابطًا بينها وبين بلدته فقام بوصف الطريق الذي يربط بين القرية ومدينة طنطا مدينة الدراسة ومركز أهل البلدة للتنزة. متحدثًا عن شوارعها الأثرية البارزة ومبانيها . كما لم ينس الحديث عن أحيائها الصغيرة والأزقة والترع ، فكان وصف الراوي للمدينة وصفًا دقيقًا حيًّا رابطًا بينه وبين عادات أهلها ومعتقداتهم التى كانت سائدة فى ذلك الوقت والمرتبطة بالأماكن المظلمة ومخاوفهم من الأشباح والظلام و" من لا اسم لهم " الذين يتربصون بأهل المكان؛ ليطردوهم ويسكنوا مكانهم ، فجعل القارئ الذي عرف المكان فى ذلك الوقت أو سمع عنه يتخيله ويشعر بأنه جزء منه كان يحيا فيه. *فكان وصف نور الدين لبيت الدراسة فى المدينة انموذجًا لبيوت المدينة فى تلك الفترة . وعلى نفس الطريقة فى الوصف والاهتمام بالمكان يعاود الراوي؛ ليصف لنا بيوت القرى فى تلك الفترة* من خلال بيت الشيخ عبد الرحمن سليم والذي يشبه بيوت القرى فى تلك الفترة بنظام غرفه وترتيبه وأسماء الغرف واستخداماتها ، رابطًا بينها وبين المكان وعادات أهله دون إقحام ذلك الوصف على السرد " باب وسط الدار يفصل القسم الأول المخصص للمندرة والقاعات الكبيرة وصحن الدار مع القسم الثانى : الفرن وقاعات النوم ، المزيرة ، وفى الخلفية ، فى منطقة لا سقف لها غير السماء : الزريبة ومخازن التبن والحبوب وغرفة المعاش وخزانة اللبن ، وعلى السطوح ثلاثة مقاعد تستعمل للنوم فى الصيف . ثقل الدار فى المندرة . غرفة واسعة تطل نوافذها على الطريق مفروشة بكتب مغطاه بالحصير . فى الركن منضدة صغيرة من الحديد مستديرة ، مغطاة بسجادة صلاة ، بجوار خزينة فى الحائط لها باب ومفتاحها يقبع في جيب الشيخ . الشيخ أول من يستيقظ يسمعون صوته فى أثناء نومهم ، يفتح الباب الكبير "[٢] *ولم يغفل الراوي عن بيان تقدم الزمن وأثره على البيئة المكانية واختلافها وتطورها ، هذا الاختلاف الذي طال العادات والتقاليد كما وصل إلى البيوت والمبانى* فتحولت المندرة إلى غرفة ضيوف ، وحل الدولاب محل خزانة الأوراق ، وحلت الكنبة المفروشة بالكليم فى الشرفة محل المصطبة التى كانت موجودة خارج الدار فتأثرت الشخصيات وعاداتهم بتغير الأماكن التى تأثرت بالتغيرات الزمنية وتطور الزمن

١ـ عادل عصمت : رواية الوصايا ،الكتب خان للنشر والتوزيع ، القاهرة ، ط٢ ، ٢٠١٩، ص ٢٦

٢ـ عادل عصمت : رواية الوصايا ، ص ٤٥

وهكذا نجد أن فى حياة الشيخ وعائلته إطارًا للفضاء المكانى للبيئة المصرية وخاصة مدينة طنطا ، فقام الكاتب بإبرازها بكل ما تحمله من خصوصية وكل ما يميزها من عادات وتقاليد ومعتقدات. ومع أن رواية الوصايا كانت أكثر روايات عادل عصمت عناية بالفضاء المكانى لمدينة طنطا ، وحرصًا على تصوير أدق تفاصيلها وعادات أهلها ، إلا أن الروايات الأخرى للكاتب اجتهدت فى تقديم صورة حيّة للبيئة الطنطاوية ، فقدمت الروايات الثماني صورة متكاملة حية عن مدينة طنطا مبينة عادات أهلها وتقاليدهم وطريقة حياتهم ومخاوفهم ومبانيها وشوارعها وأحياءها الشهيرة.

وعن رواية " حالات ريم " نجد فيها الكاتب يولى البيئة المكانية اهتماما كبيرًا؛ حيث قدم صورة دقيقة للبيئة الطنطاوية من خلال شخصياته التى صورها من خلالها المعالم المكانية لمدينة طنطا وعادات أهلها ومشاكلهم المرتبطة بفترة التسعينيات. فقدم لنا وصف لحال المدينة كل صباح فنجدها تزدهر وتصحو مع أهلها فتمتلى الشوارع بالأطفال ذاهبين إلى مدارسهم، والرجال والنساء ذاهبين إلى أعمالهم ، فتعلو أصواتهم فى الفضاء المكانى ويطبعوا عليه حسهم به وعاداتهم وتصرفاتهم التى اكتسبوها منه " بدأت المدينة تصحو وتنمو حركاتها وتزدحم شوارعها . يدور بالسيارة غير قادر على التوقف ، حتى ترددت فى الفضاء أناشيد الصباح المدرسية ، وعزف أكورديون أنغام النشيد الوطنى ، ملخبطة، غير متقنة ، مغمورة بوشيش مكبر الصوت"[١] فقد نجح الكاتب فى تقديم بعض العادات الصباحية لسكان المدينة ، فقام بتصوير البيئة الطنطاوية ومدى ترابط أفرادها ، وتأثرهم بالفضاء المكانى الذي يعيشون فيه الذي غلب على طبائعهم ، فالأطفال تذهب إلى مدارسهم كل صباح يرددون النشيد الوطنى الذي يعلو صوت ترديده فى المكان ويدل على البيئة المصرية ، والرجال والنساء يؤدون أعمالهم.

أما فى رواية " صوت الغراب " أهمية المكان تتجلى ، فيحتل وصف المكان المساحة الأكبر من أحداث الرواية ، فقام بوصف المنازل من الداخل والخارج وشوارع المدينة وأحيائها وصفًا دقيقًا يوحى بمدى تأثر الراوى بالمكان وارتباطه به. فأسهب فى وصف منزل العائلة والدور الأرضى الذي اتخذ منه أنموذجًا للمنازل فى ذلك الفضاء المكانى الذي نشأ فيه ووجد فيه المنزل ، فعكس من خلاله عادات أهله وطرقهم فى ترتيب الغرف وتسميتها، والأثاث المستخدم فى تلك الفترة والذي ينطق بلغة المكان ولغة أصحابه. " الشقة التحتانية دائمًا مغلقة النوافذ . الكنب المجاور للحائط فى الصالة رائحته تراب ، وباب غرفة الخزين مفتوح ، وبرانى السمن والعسل الأسود مرصوصة بجوار الحائط "[٢] أما عندما يصف البيت الجديد الذي بناه والده وانتقلوا إلى العيش فيه ليحل مكان بيت العائلة، فإنه يقارن بينه وبين البيت القديم لتكون النتيجة لصالح البيت القديم الذي نشأ فيه وتربى فى أجوائه التى أحبها وحفظها عن ظهر قلب، فكانت الأساس الأول لشخصيته وحكاياته ويظهر حرص الراوي البطل على وصف الأماكن والمنازل فلا ينسى وصف المدينة وشوارعها وصفًا دقيقًا حرص فيه على حصر شوارع المدينة التى حفظها منذ صباه وطاف حولها بدراجته فانطلق بها " في شارع الجلاء الواسع . بدأت بسرعة متوسطة ثم زدتها بالتدريج حتى خفت الدراجة وخف جسدى ، وعندما شعرت بأنها كانت منحة . وصلت إلى كوبرى فاروق .ركنتها على سياج الجسر الذي يقود إلى خارج المدينة ، ووقفت أتابع الماء يسيل ، لونه داكن به طيف من الخضرة ، يمور ويحمل معه فرع شجرة كبير أحاطت به أعواد حطب .. قدتُ دراجتى عائدًا مرة أخرى

١ـ عادل عصمت : رواية حالات ريم ،الكتب خان للنشر والتوزيع ، القاهرة ، ط١ ، ص ١٠٤

٢ـ عادل عصمت : رواية صوت الغراب ،الكتب خان للنشر والتوزيع ، القاهرة ، ط١ ،٢٠١٧، ص٢٨

إلى قلب المدينة .تركت خلفي كوبرى القرشي . انحرفت يسارًا حتى وصلت محطة السكة الحديد . هناك شعرتُ بأننى ابتعدت ما يكفى ، عندما سمعتُ صفارة القطار الصارخة ، تأتى من وراء المبنى ذي القبة البيضاء . أعرف أننى أغامر عندما أجيء إلى منطقة الجامع الأحمدى . توقفت عند الناصية أطل على المآذن العالية . هناك السماء قريبة جدًا .. كنت على اطراف الدنيا فى فضاء ميدان المحطة مثلما كنت على الكوبرى ، بعيدًا بما يكفى عن البيت الذي ماتت فيه عمتى سعاد .قررتُ أن أُكمل الدائرة عائدًا إلى البيت من شارع المدرية ..عدتُ من شارع البورصة إلى شارع الجلاء"[١] فكان وصف الراوى لشوارع المدينة بيانًا لمدى حرصه على تصوير فضائه المكانى الذي يعتز به .

ثانيًا: ارتباط الشخصيات بالمكان

يعد المكان بالنسبة للشخصيات الوعاء الذي تتحرك فيه ، فالشخصيات الروائية لا يمكنها العيش خارج إطار المكان ، فلا بد لها من مكان يضمها وتتحرك فيه . وكذلك المكان لا يكتسب قيمته ودلالته فى العمل الروائي إلا حين تتواجد فيه الشخصيات فيصبح مجالًا لحركتها ورغباتها وصراعتها وأفكارها [٢] كما أن للمكان دوره الرئيس في تشكيل هوية الشخصيات وانتماءاتها واوضاعها الاجتماعية والثقافية والسياسية ، فالشخصيات التى تعيش فى الريف تصبح ريفية لانعكاس ميزاته وطبيعته على طباع وسلوك أفرادها وكذلك الشخصيات " التى تعيش فى الجبل تصبح جبلية ، لظهور مميزاته على طباعها وسلوكها ، والشخصية التى تعيش فى المدن تصبح مدنية للتأثير على طباعها"[٣]

فالعلاقة بين المكان والشخصيات إذًا علاقة تبادل وتلازم ، تجعل كل عنصر منهم يؤثر فى الآخر ، فالمكان يترك أثره وبصمته على الشخصيات بكافة أبعادها النفسية والشكلية والاجتماعية ومن هنا يمكن الاستعانه بالمكان للكشف عن أبعاد الشخصية ، وفى المقابل فإن للشخصية تأثيرها فى المكان ، فهى التى تكشف لنا المكان وتحدد أبعاده .فالمكان لايظهر إلا من خلال وجهة نظر شخصياته التى تتحرك فيه ، وهذا ما يجعل المكان الواحد يظهر بصور متعددة ، فقد يظهر المكان أليفًا محبوبًا ، وقد يظهر بغيضًا مكروهًا ، ومنفرًا ، وذلك كله يرجع للحالة النفسية للشخصيات ومشاعرها والتى تنعكس على صورة المكان[٤] ففى رواية " حياة مستقرة " لعب المكان دورًا هامًا فكان هو البطل الحقيقى الذي يحرك الشخصيات والأحداث ويدفعها للسير؛ حيث تدور أحداث الرواية حول المحاولة الدائمة للبحث عن الاستقرار ، وتحقيق حياة مستقرة من خلال المكان ، هذه هى الفكرة الرئيسة التى سيطرت على الأب وأثرت على تصرفاته ، فرغبته فى الترقى الاجتماعى وخلق مناخ أفضل لأولاده لا يتم إلا بالاستقرار ببناء بيت جديد ، فكان عليه أن يتحمل الصعوبات التى قد تواجهه من أجل بناء البيت من مرتب بسيط يأكله التضخم وميراث صغير ، فأثرت على عاداته وتصرفاته فأصبح دائم الانشغال بالمكان وبتركيب الأبواب،وتصليح الحنفيات ،

١ـ عادل عصمت : المصدر السابق ، ص ٣٣ ، ٣٤

٢ ـ انظر ؛ حسن بحراوي : بنية الشكل الروائي ، ص ٢٦

٣ ـ محمد عزام : شعرية الخطاب السردى ، منشورات اتحاد كتاب العرب ، دمشق ـ سوريا ،(د.ط)،٢٠٠٥ ، ص ٢٨

٤ ـ انظر ؛ حسن بحراوي : بنية الشكل الروائى ، ص ٣٢

وصنع أثاثه من قطع خشب صغيرة يمكن أن يوفرها من بقايا البناء[١] فكان عليه الاقتصاد؛ حتى يحقق الاستقرار الذي لم يكتمل إلا ببناء البيت ومع صورة المكان الإيجابية وتأثيرها على تصرفات الأب ، نجد صورتها السلبية فى نفس الراوي وتأثيرها السلبي على حياته الذي طبع فى ذهنه ، فهو لم يتقبل طريقه الترابى الجديد ، وبقايا الطوب والأسمنت والخشب التى تم بناء البيت بها ، واهتمام الأب بكل ما يخص الإنفاق من شراء كتب وكشاكيل وأحذية وملابس وإدخالها ضمن حسابات دقيقة لم يستطع التخلص منها ، فحملت هذه الفترة طابعًا داكنًا فى نفسه لم يستطع التخلص منه طوال حياته [٢] كما لم يغفل الكاتب الحديث عن بعض الأماكن العامة فى المدينة ، التى أتى بها فى إطار حديثه عن عمله رابطًا بينها وبين الشخصية الرئيسة التى رفضت المكان بسبب التحديثات التى طالته ، فقام بوصف دار الكتب بشكلها القديم الأقرب إلى نفسه والشكل الحديث الذي أدى إلى نفوره حيث كان الشكل القديم للمبنى أقرب إلى نفس الراوى ومناسبًا له أكثر من الشكل الحديث ، ولكن لم يكن تجديد المبنى والتجهيزات الحديثة هى سبب نفور الراوى ، فكان السبب الأهم هو جعل غرفة البدروم برائحتها الرطبة التى تشبه رائحة الأدوية ، هى غرفة الفهرسة التى يؤدى فيها الراوى عمله مما سبب له التوتر ، فمن الصعب عليه تحمل يومه بين مكانين لهما نفس الرائحة النفّاذة. وهكذا نجد الكاتب صور البيئة المكانية من خلال حياة البطل وذكرياته.

أما فى رواية " حكايات يوسف تادرس " ، فكان فيها يوسف تادرس شديد الالتصاق ببيئته التى تربى ونشأ فيها فأثرت عليه وعلى طباعه وتكوين شخصيته ، ففى الزقاق الموجود بشارع غياث الدين بمدينة طنطا تكمن جنته التى افتقدها بعد أن غادرها ، التى كانت تجمعه بها الذكريات والمشاعر، فهو يعرفه حق المعرفة يجد فيه الرعاية التى يحتاجها فهو ليوسف مثل رحم الأم يربطه به ارتباط عضوى ليس ذكريات فحسب ، فانفصاله عن هذا الرحم ميلاد جديد له لا يقدر على تحمله فكان البطل الراوى شديد الولع ببيئته حريصًا على وصفها وصفًا دقيقًا من خلال حركته وحركة شخصيات الرواية جميعًا داخل تلك الفضاء المكانى وتفاعلهم داخله ، حتى لا يظهر هذا الوصف مقحمًا على سياق الرواية ، وهذا ما نجده فى المقطع الوصفى الذى أبرز فيه البطل حياة الزقاق وعادات أهله ، ومدى تأثيره على تكوين شخصية يوسف ورفاقه." كانوا يعيشون فى الزقاق كأسرة واحدة . عندما يدخل بائع الكابوريا بمشنته على كتفه ، فإنه لا يخرج بشيء منها . تتجمع الناس تأخذ البيعة كلها ، وفى العصر تخيم على الزقاق رائحة سلق الكابوريا المشبع برائحة الكمون . ذات يوم فى العصر ، أثناء الصيف ، فكّرت " زينات " فى استعمال حبل الغسيل الموجود وسط الزقاق مثل شبكة الكرة الطائرة تجمعت ثلاث نساء وأخذن كرة بلاستيك من ولد صغير ، وبدأ ماتش كرة طائرة . انتشرت بهجة شفافة فى المكان ..."[٣] ولم يكن اهتمام الراوي بالمكان وحركته فحسب بل تعداه؛ ليربط بين المكان وعادات سكانه النابعة من طبيعة المكان ، وحركتهم داخله ولهوهم ،الكل يتشارك الحياة الغرف متلاصقة تحمل صفة البيت الواحد الذي يتشارك أصحابه الفرح والحزن

١ـ انظر ؛ عادل عصمت : رواية حياة مستقرة ،دار شرقيات للنشر والتوزيع ـ باب اللوق ـ القاهرة ،ط١ ،٢٠٠٤ ، ص ٥٧

٢ـ انظر ؛ عادل عصمت : المصدر السابق ، ص ٥٨

٣ـ انظر؛ عادل عصمت : رواية حكايات يوسف تادرس ،الكتب خان للنشر والتوزيع ـ القاهرة ـ ط٢ ،٢٠١٥ ، ص ٤٠

وفى رواية " الرجل العارى " فكانت تصويرًا للحياة فى البيئة الريفية فى زمن بعيد قبل أن تشق الطرق وتصل الحضارة والكهرباء إلى الريف وتمتلئ حياة أهله ، فظهرت أفكار شخصياته ومعتقداتهم مرتبطة بالعوالم المحيطة بهم ، والكائنات الأخرى التى تعيش معهم ولا يستطيعون رؤيتها ، تلك الكائنات الساكنة فى جوف الأرض وفى المقابر يردون السلام دون أن يروهم، وفى الطرق الخالية عند العودة من الغيط أوعند الذهاب إلى محطة القطار فظهر المكان كبطل حقيقي مؤثر على أفكار شخصياته وعاداتهم ومعتقداتهم ، فتوغل الكاتب داخل المجتمع الريفى ، وبحث فى أعماق شخصياته ومعتقداتهم المرتبطة ببيئتهم الزراعية الهادئة؛ حيث تدور أحداث الرواية حول وجود رجل عارى يظهر للفتيات فى أوقاتهن الخاصة أثناء خلو الدار من الرجال؛ ليبدد عزلتهم السرية ويظهر لهم عاريًا تمامًا ، فارغًا وجسده مضيئًا يلمع كأنه مدهون بالزيت [١] وفى أثناء رحلة البحث تتوالى حكايات الرجل العارى وحكايات من يظهر لهم المرتبطة بالفضاء المكانى والمجتمع الذي ظهر فيه. فتظهر الحكايات منفصلة عن بعضها البعض ، فلكل شخصية ظهر لها الرجل العارى حكايتها التى تختلف عن غيرها ، إلا أن هذه الشخصيات وهذه الحكايات يضمهم مكان واحد، فأصبح حزنهم واحد وأفكارهم واحدة ، فاجتمعوا جميعًا على هدف واحد ،هو عودة المكان إلى طبيعته وهدوءه وإيجاد الرجل العارى والتخلص منه. ومع عدم ذكر الكاتب لاسم القرية، إلا أننا نستطيع أن نجزم بأنها أحد القرى القريبة من مدينة طنطا؛ حيث كانت مدينة طنطا هى المركز الحضارى لها، فكثيرًا ما سافر إليها مؤمن لدخول السينما وشراء الكتب والتمشية فى شارع البحر وميدان الساعة والشوارع الرئيسة المحيطة بالسينمات ،وشراء الخيوط لخاله وقضاء متطلباته[٢] فاستطاع الكاتب إبراز صورة متكاملة لمدينة طنطا فى تلك الفترة ، فظهرت كمركز حضارى ومكانًا للترفية لسكان القري القريبة منها ،الذين يلجأون إليها للتنزه وقضاء مستلزماتهم ، كما نجح الكاتب فى تقديم صورة حية لحياة الريف وأهله بتلاحمه وتعاون أهله فى العمل فى الغيط ، فكافة أفراد الأسرة تشترك فى العمل فى الأرض

وفى رواية " صوت الغراب " ظهرت الأماكن الأثرية والروحية، في المدينة وأثرها على النفوس ، فقد ذكر مكانة الجامع الاحمدى[٣] لدى مريديه وما يبعثه فى نفوس زائريه من سكينة وطمأنينة، فقام بوصفه وبيان أثره دون أن يقحمه على السرد داخل الرواية.

النتائج :

ـ كشفت الدراسة عن مدى ارتباط عادل عصمت بالبيئة الطنطاوية التي طغت على كتاباته وانطبعت في ذاكرته وعكسها في أعماله الأدبية ، فسعى إلى التعبير عنها تعبيرًا يعكس معالمها المكانية والاجتماعية ويوضحها ، وقد تجلى ذلك من خلال رسم الشخصيات وأسمائها التي ارتضاها لها، وقضاياها ولغتها التي عبرت عنها وعن انصهارها داخل البيئة الطنطاوية وأكدتها ، كما كان واضحًا من خلال التفاصيل الدقيقة التي قام عادل عصمت بإبرازها داخل رواياته بصورة تجذب القارئ إليها وإلى المكان ، وتجعله يراه من زوايا جديدة ومختلفة ، تجعل القارئ أكثر تعلقًا بالمكان .

١ـ انظر ؛ عادل عصمت :رواية الرجل العارى، دار شرقيات للنشر والتوزيع ـ باب اللوق ـ القاهرة ،ط١ ، ١٩٩٨ ، ص ٧ ،٨

٢ـ انظر ؛ عادل عصمت : المصدر السابق ، ص ٥٤

٣ـ عادل عصمت : رواية صوت الغراب ، ص١٣٠

المصادر والمراجع

أولًا : المصادر

عادل عصمت :

١ ـ رواية هاجس موت، دار شرقيات للنشر والتوزيع، باب اللوق ـ القاهرة، ط ١، ١٩٩٥.

٢ـ رواية الرجل العاري، دار شرقيات للنشر والتوزيع، باب اللوق ـ القاهرة، ط ١، ١٩٩٨.

٣ـ رواية حياة مستقرة، دار شرقيات للنشر والتوزيع، باب اللوق ـ القاهرة، ط ١، ٢٠٠٤.

٤ـ رواية أيام النوافذ الزرقاء، دار شرقيات للنشر والتوزيع، باب اللوق ـ القاهرة، ط ١، ٢٠٠٩.

٥ـ رواية حكايات يوسف تادرس، الكتب خان للنشر والتوزيع ، القاهرة ، ط ٢، ٢٠١٥.

٦ـ رواية حالات ريم، الكتب خان للنشر والتوزيع ، القاهرة ، ط ١ ، ٢٠١٧.

٧ ـ رواية صوت الغراب ، الكتب خان للنشر والتوزيع ، القاهرة ، ط ١ ، ٢٠١٧.

٨ـ رواية الوصايا ، الكتب خان للنشر والتوزيع ، القاهرة ، ط ٢ ، ٢٠١٩.

ثانيًا المراجع

١ـ حسن بحراوي : بنية الشكل الروائي ،المركز الثقافي العربى ، الدار البيضاء ، ط١ ، ١٩٩٠.

٢ـ سيزا قاسم :

ـ بناء الرواية ، دراسة مقارنة فى ثلاثية نجيب محفوظ ـ دار التنوير، بيروت ، ط ١ ، ١٩٨٥

ـ القارئ والنص والعلامة ، المجلس الأعلى للثقافة ـ القاهرة ، د.ط ، ٢٠٠٢ .

٣ ـ عبد الفتاح عثمان : بناء الرواية ، دراسة فى الرواية المصرية ،مكتبة الشباب ـ مصر، ط ١٩٨٢ .

٤ ـ محمد عزام : شعرية الخطاب السردى ، منشورات اتحاد كتاب العرب ، دمشق ـ سوريا ،(د.ط)،٢٠٠٥.

٥ـ مصطفى الضبع : استراتيجية المكان ، الهيئة العامة لقصور الثقافة ، ط١ ، ١٩٩٨ .

Centrality of the place in Adel Esmat's novels

Building characters in Adel Esmat's novels

BY

Shaimaa Ibrahim Tawfik El, Sayed

Master of Literature and Criticism, Department of Arabic Language, Faculty of Arts, Tanta University

A.D. / Osama Mohammed Al-Beheiry

Professor of Literary Criticism and Eloquence in the Department of Arabic Language, Faculty of Literature, Tanta University

Dr. Bashir Essam El-Shorbagy

Teacher of Literature and Criticism in the Department of Arabic Language, Faculty of Arts, Tanta University

Abstract:

The subject of the study on clarifying the centrality of the place crystallized in the novels of Adel Esmat, where the element of place in the novels of the writer formed an important aspect in the structure of his novels, not only being a vessel for the event, but went beyond that to participate in the structure of the novel. Turn the place into a hero in the novel. The study of the place revealed that Adel Esmat's novels are strongly related to their environment, and the study relied on the mechanisms of the technical approach with the necessary analysis and budget, which included artistic and aesthetic values as well as did not overlook the content and the objectives and objectives that fall behind it**. The study was divided into two parts: Part 1: Description of places and their connotations and** the role of description in presenting a vivid picture of the **place, part two:** the association of **characters with the place** and its prominent influence in the development of **characters and the formation of conflict within novels**

and clarify this by citing various texts The most important results of the study came: it turns out that Adel Esmat's association with the Tanta environment that dominated his writings

Keywords:

Space, description of places, the influence of the characters in the place, the city of Tanta, the influence of the characters in the place.